نُخْبَةُ الإِعْلامِ الجِهَادِيِّ

www.nokbah.com



جمادى الأول 1433 هـ | 05-2012 م

قِسْمُ التَّفرِيغِ وَالنَّشرِ

سلسلة

خواطر في التزكية والسلوك

الحلقة الأولى

أول الخطوات

للشيخ المجاهد

حارث بن غازي النظاري (حفظه الله)

- إنتاج : مؤسسة الملاحم للإنتاج الإعلامي
- النوع : إصدار صوتي
- المدة : ٢٢ دقيقة
- الناشر : مركز الفجر للإعلام

بسم الله الرحمن الرحيم

نُخْبَةُ الإِعْلامِ الجِهَادِيِّ

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

يقدم

تفريغ ((الحلقة الأولى))

من سلسلة

خواطر في التزكية والسلوك

لفضيلة الشيخ/ حارث بن غازي النظاري (حفظه الله)

الخاطرة الأولى بعنوان: [أول الخطوات]

الصادرة عن مؤسسة الملاحم للإنتاج الإعلامي
جمادى الأول 1433 هـ
05 / 2012 م

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾

الحمد لله ربِّ العالمين، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنَّك حميدٌ مجيد، أمَّا بعد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

هذا عتابٌ من الله تبارك وتعالى على المؤمنين، أيُّها المؤمن أما آن لقلبك أن يخشع؟! هذه الآية إيقاظٌ وتنبيهٌ للمؤمن، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ إيقاظ وتنبيه وتحذير للمؤمن أن يقع فيما وقع فيه حملة الكتاب من الأمم السابقة.

﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، احذر أيُّها المؤمن أن يطول عليك الأمد ويقسو قلبك، ففي هذه الآية إيقاظ للمؤمن الذي قد تطرأ عليه الغفلة مع طول الأمد، فهي إيقاظ من سهو وتنبيه من غفلة.

والمؤمن قد تصيبه الغفلة والغفوة ولكن المؤمن سرعان ما يستيقظ عند التنبيه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فالمؤمن قد يغفل ويسهو ويحتاج إلى إيقاظ، وقوة الإيقاظ على قوة الغفلة، فكلما اشتدَّت الغفلة احتاج التنبيه إلى إيقاظ شديد وإلى شدَّة إزعاج حتى يحصل الانتباه.

وقد قال الإمام الهروي –رحمه الله– في (المنازل) عن اليقظة، قال: "هي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين" فشبَّه الغفلة بالرقاد والنوم، والاستيقاظ عملية انزعاج للقلب حتى يحصل الانتباه، فإذا كان الإنسان في نوم لا بدَّ من شيء مزعج له حتى يخرجه من هذا النوم ومن هذه الغفلة، وكذلك إذا كان في غفلة في الإيمان، فالمؤمن قد تصيبه الغفلة والغفوة.

ولا ينبغي لأحد أن يزكِّي نفسه ويمدحها ويثني عليها ويقول أنا ليس عندي غفلة أنا تامُّ اليقظة والانتباه، هذا القول –بتزكية النفس ومدحها– دليلٌ على تمكُّن الغفلة من القلب، قال ابن القيم –رحمه الله– في الفوائد: "لا بدَّ من سِنة الغفلة ورقاد الغفلة، ولكن كن خفيف النوم". بل إنَّ عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– عدَّ الراحة للرجال غفلة كما ذكر ذلك الماوردي في أدب الدنيا والدين.

القصد؛ أنَّ الإنسان تصيبه الغفلة ويذنب ويخطئ، وكل هذا من النسيان والغفلة، والذنب والخطأ له أثر

على القلب يصيبها بأغشية ويصيبها بأغلفة، قال ابن القيم –رحمه الله– وهو يتحدَّث عن أغشية القلب وأغلفته، قسَّم أغشية القلب إلى ثلاثة –التي تصيب المسلم ليس الكافر المختوم على قلبه والمطبوع على قلبه، الكلام عن المسلم الذي تصيب قلبه أغلفة، فعدَّ منها ثلاثة–:

الأول: الغين، قال: الغين يغشى القلب وهو أرق الحجب.
ثم الغيم وهو أغلظ منه.
ثم الران وهو أشد منه.

ثم ذكر ابن القيم –رحمه الله– أنَّ الغين –هذا الغشاء الخفيف– قد يقع على الأنبياء، واستدل بما رواه الإمام مسلم عن الأغرِّ المُزني –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنَّه ليُغان على قلبي وإنِّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"، ما معنى يُغان على قلبه صلى الله عليه وآله وسلم؟

ذكر ابن الأثير –رحمه الله– في النهاية في غريب الحديث معنى ذلك، فيقول كلامًا ملخَّصه: أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قلبه مشغولٌ بالله تبارك وتعالى دائمًا، فإذا أصابه عارض لما يشغله من أمور الدنيا في مصلحة الأمة –عدَّ ذلك الأمر ذنبًا وتقصيرًا–، فيفزع النبي صلى الله عليه وآله وسلم للاستغفار من انشغال قلبه بأمور من أمور الدنيا لمصالح المسلمين، القصد: ذكر ابن القيم –رحمه الله– أن الأغلفة ثلاثة: الغين، قال: ويقع على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. والثاني: الغيم: ويكون للمؤمنين. والثالث: الرَّان: وهو لمن غلبت عليه الشِّقوة.

قال تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ذكر ابن عباس –رضي الله عنه– تفسير الرَّان أو سبب وقوع الرَّان على القلب، فقال –رحمه الله–: هو الذنب بعد الذنب يغطِّي القلب حتى يصير عليه كالرَّان. فذكر ابن عباس –رضي الله عنه– أنَّ توالي الذنوب على القلب تغلِّفه حتى يصير عليه كالرَّان، القصد: أنَّ الغلفة تصيب المؤمن، وأول الخطوات في إصلاح القلب هي اليقظة، وهي أول منازل العبودية كما أقرَّ ذلك ابن القيم –رحمه الله– في مدارج السالكين.

ولكن الخطورة أن يكون العبد في غفلة وهو لا يدري أنَّه غافل فيفوته خيرٌ كثير.

ذكر ابن القيم –رحمه الله– في مدارج السالكين عن أنواع من الغفلة تصيب المؤمن السائر إلى الله تبارك وتعالى، فذكر –رحمه الله– أنَّ المجهول لنا من الحق أشياء كثيرة، علمت شيئًا وغابت عنك أشياءُ، فكثير من أمور الخير والصلاح والهداية لا نعلمها، نعلم شيئًا قليلاً ويفوتنا أشياء كثيرة، ثم هذا الشيء القليل الذي لدينا من العلم والهداية –الشيء القليل هذا الذي نعلمه– لنا معه إمَّا كسل وإمَّا عدم قدرة في

بعضه، فهناك أشياء كثيرة من التي نعلمها من الهدى والخير نتركها تكاسلاً وتهاونًا مثل كثير من السنن والنوافل وأعمال الخير نتركها تكاسلاً أو تهاونًا، وأشياء أخرى من أمور الخير والصلاح والعبادة نعرفها ونريدها لكننا لا نستطيع أن نفعلها مثل بعض العبادات قد تكون غير متيسرة في أحوال فنريد أن نفعلها ولكن لا نستطيع، فهذا صنف.

ثم شيء آخر من أمور الخير والصلاح والهداية نعرفه إجمالاً ولا نعرف تفصيله ولم نهتدِ لتفصيله، وكل هذا من الغفلة كوننا نعرف أنَّ هذا الأمر من الخير والصلاح ثم أكسل عنه هذه غفلة، وكوني أن أعلم بأنِّي جاهل بأشياء كثيرة من الخير ولا أسعى في تحصيل العلم لها هذه كذلك غفلة، وكوني أنِّي أعلم إجمال العبادات أو إجمال الطاعة من غير أن أهتدي لتفصيلها هذه أيضًا غفلة تحتاج إلى استيقاظ، تحتاج إلى يقظة، تحتاج إلى انتباه، تحتاج إلى صدق رغبة في السير إلى الله تبارك وتعالى.

ونحن في حالنا هذه –في سيرنا إلى الله تبارك وتعالى– رضانا بما نحن فيه يفوِّت علينا درجات من القرب إلى الله تبارك وتعالى عظيمة أضعناها بغفلتنا لا نسعى إليها، هذه الغفلة لها أسباب ولكن أعظم هذه الأسباب –والله أعلم– هو الرضا عن النفس.

والرضا عن النفس داءٌ تكلَّم عنه العلماء من قديم الزمان، قال ابن الجوزي –رحمه الله– في (صيد الخاطر): "المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه، واقتناعه بعلمه، وهذه محنةٌ قد عمَّت أكثر الخلق، وقديمًا قالوا في الحِكَم أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل يقظة عدم الرضا عنها، ولئن تصاحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه".

إذن هذه المشكلة هي رضا الإنسان عن نفسه، يرى نفسه في أحسن حال، فإذا رأى نفسه في أحسن حال كيف سينهض للتغيير؟ كيف سيبدِّل من حاله؟ كيف سيتقدَّم إلى الله تبارك وتعالى ويرتقي في معارج القبول إليه؟

هذه المشكلة –وهي الرضا عن النفس– ما أسبابها؟

سأتحدث عن أسبابها بإيجاز:

السبب الأول من أسباب الرضا عن النفس: المقارنة بمن ظاهره أسوء حالاً ، أن أنظر إلى حالي وأنظر إلى من حولي فأرى أنِّي أفضل منهم، وأنَّ حالهم أسوء مني، وقالوا قديمًا: ربما أراك الإحسان منك صحبتك من هو أسوء حالاً منك.

فإذا تلفَّتُّ يمينًا ويسارًا ورأيت من هو أقلُّ حالاً مني أورث ذلك في قلبي رضًا عن حالي وعن نفسي.

ما العلاج لهذه المشكلة؟ العلاج والدواء: "طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس".

أنت ترى الناس أو ترى الآخرين أنَّهم أسوء حالاً منك، وما يدريك؟! لديك من ذنوب القلوب ما هو أعظم من بعض المعاصي الظاهرة، لدينا ذنوب وآثام كثيرة لا نقدِّرها، ما لدي من الكِبر والعُجب والرياء أعظم مما لدى الآخرين من بعض السلوك الذي لا أحبُّه، وإنَّ أصغر ذنوبك سيكون أعظم عليك يوم القيامة من أعظم ذنبٍ اقترفه غيرك، إذن لديك ذنوب ومعاصي، أنت لا تعرف عن الناس، لا تعرف ما في قلوبهم، لا تعرف ما في سلوكهم، قد يظهر من بعضهم بعض السلوك أو بعض الآثام لكن في قلوبهم من الإيمان ما هو أعظم مما في قلبك، قد يكون لديهم استغفار وتوبة وإنابة لا تعلم عنها، هذا أولاً.

ثانيًا: القدوة هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فالميزان الذي أزن به أعمالي وخلقي وسلوكي ليست البيئة التي أنا فيها، وإنما هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم وعباداته وسلوكه ومعاملاته صلوات الله وسلامه عليه هي الميزان الذي أزن به حالي والذي أزن به سلوكي وعبادتي، أَنْظر كيف كانت عبادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ كيف كان طُهر قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ كيف كان إيمانه؟ كيف كانت مناجاته لله تبارك وتعالى؟ كيف كان يقينه؟ كيف كان سلوكه ومعاملته؟

هذا هو الميزان الذي أزن به حالي؛ هو ميزان الشرع، النبي صلى الله عليه وآله وسلم، عبادته، سلوكه، أخلاقه، تعامله، هذا هو الميزان الحق.
إذن السبب الأول من أسباب الرضا عن النفس هو المقارنة بمن ظاهره أسوء حالاً.

السبب الثاني في ما يجعل الشخص يرضى عن نفسه هو ثناء الخلق، أن يُثني عليَّ الناس، يذكروني بخير، يمدحونني، وهذا سبب مهم من أسباب الرضا عن النفس، ما هو الدواء؟ وما هو العلاج؟ أنت أَعْرَف بنفسك، مَن أثنى عليك إنَّما أثنى على جميل ستر الله عليك، لديك من الآثام الكثيرة ومن العيوب الكثيرة ومن الخطايا ولكن الله تبارك وتعالى أسبل عليك ستره، فالناظر إليك إنما ينظر إلى جمال ستر الله عليك، ولو كُشِف له الستر لرأى أمرًا عَجَبًا وكل إنسان منَّا يعرف حال نفسه ويعرف عيوبه ويعرف خطاياه.

ورحم الله القحطاني في النونية عندما قال:

والله لو علموا قبيح سريرتي ... لأبى السلام عليَّ من يلقاني
ولأعرضوا عني وملُّوا صحبتي ... ولبئت بعد كرامةٍ بهوانِ

لكن سترتَ معايبي ومثالبي وحلمت عن سَقَطي وعن طغياني
فلك المحامد والمدائح كلُّها بخواطري وجوارحي ولساني

هذا الأمر الأول، أنت أَعْرَف بنفسك، ومن أثنى عليك إنَّما أثنى على جميل ستر الله عليك، فلا تغترَّ بجميل ستر الله عليك ولكن كن ذامًا لنفسك بقدر ما تعلم منها من سوء، واشكر الله تبارك وتعالى على جميل الستر.

الأمر الثاني –في علاج الاغترار بثناء الناس–: هو أنَّ الثناء الحقيقي للعبد هو في السماء، ما اسمك في السماء؟ ما صفتك في السماء؟ "إنَّ الرجل ليصدق ويتحرَّى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقًا، وإنَّ الرجل ليكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذَّابًا" فبئس الرجل من دُعي في الأرض مخلصًا وهو عند الله تبارك وتعالى من المرائين –والعياذ بالله–، أو أن يُدعى في الأرض متواضع وكريم وشجاع وهو عند الله تبارك وتعالى منافق أو خائن أو كاذب أو فاجر –والعياذ بالله–، فلا نهتم كثيرًا بمدح الناس وإنَّما نبحث في المكانة عند الله تبارك وتعالى، ثناء الناس لا يُغني عني شيئًا إن كنت عند الله مذمومًا –والعياذ بالله–، فالهمُّ كل الهمِّ أن أكون عند الله تبارك وتعالى مرضيًّا أن أكون عند الله تبارك وتعالى مقرَّبًا. هذا السبب الثاني من أسباب الرضا عن النفس، السبب الأول: المقارنة بمن ظاهره أسوء حالاً، السبب الثاني: الاغترار بثناء الخلق.

السبب الثالث من أسباب الرضا عن النفس هو: استكثار الطاعة، أن يفعل الإنسان طاعةً ويراها عظيمة، يعمل عبادات ويرى أنَّه في خير، وأنَّ هذه العبادات لا يقوم بها أحد، وأنَّه بذل مجهودًا كبيرًا، وأنه فعل وفعل وفعل... فيحصل عنده استعظامٌ لهذه الطاعة، فإذا رأى الطاعة عظيمة رضي عن نفسه، ورأى أنَّه أحسن حالاً من كثيرٍ من الناس، الدواء والعلاج: هو تعظيم الله واستقلال الطاعة.

أولاً: الله تبارك وتعالى هو الذي يمنُّ عليك بالطاعة، هو الذي وفَّقك للطاعة، هو الذي يسَّرك لفعل الخير، هو الذي هداك تبارك وتعالى ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾، فالإسلام والإيمان والطاعة والصلاح والخير والعبادة والجهاد والتضحية كل هذه عبادات وهي نعم أنعم الله تبارك وتعالى بها علينا، يسَّرها لنا، امتن الله تبارك وتعالى علينا أن نكون من أهلها، ولو شاء ربي تبارك وتعالى لصرفنا عنها كما صرف كثيرًا من الخلق، فالمنَّة لله وحده، اللهم لك الحمد.

إذن الله يمنُّ علينا بالطاعة، فالطاعة هي مِنَّة من الله تبارك وتعالى، ونحمده تبارك وتعالى أن استعملنا في طاعته ووفَّقنا لمرضاته فالفضل كله لله تبارك وتعالى، هذا أولاً.

ثانيًا: نعم فعلت هذه الطاعة وبذلت مجهودًا فيها، ولكن هل قُبِلت؟

أما تخشى أن تكون ممن قال الله فيهم: (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً)؟

نعم نفعل كثيرًا من الطاعات لكن هل حقَّقنا فيها الإخلاص؟ هل كان فيها الخشوع؟ هل كان فيها الإخبات لله تبارك وتعالى؟ هذه أمور مهمة لا بدَّ من معرفتها ومراقبتها، نعم عملنا الطاعة ولكننا نرجو أن يقبلها الله تبارك وتعالى، فابتداءً المِنَّة من الله تبارك وتعالى علينا بأن فعلنا الطاعة، ثم المِنَّة من الله تبارك وتعالى علينا أن يقبلها، فأنا لا أدري هل قُبِلت الطاعة أم لم تُقبل.

ثالثًا: مَنْ المستفيد من الطاعة؟ الله سبحانه وتعالى هو الغنيُّ، وإنَّما المستفيد من الطاعة –هي لي، طاعتي– أنا المستفيد منها، كما في الحديث القدسي: "يا عبادي إنَّما هي أعمالكم أُحصيها عليكم" فالثمرة هي لي أنا المستفيد، الله تبارك وتعالى غنيٌّ عن العالمين جميعًا وعن عبادتنا جميعًا، فالمستفيد من الطاعة هو أنا، فاستكثاري للطاعة هو استكثاري على نفسي، فإذا استعظمت شيئًا فإنَّما استعظمته على نفسي، وهذا من القصور ومن الخطأ.

إذن العلاج لاستكثار الطاعة: أنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي منَّ علي بهذه الطاعة، وأنَّه تبارك وتعالى هو الذي يمنُّ عليَّ بقبولها، ثم ثالثًا أنا المستفيد بها: "يا عبادي إنَّكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضرِّي فتضروني" كما في الحديث القدسي –أيضًا–: "إنَّما هي أعمالكم أُحصيها عليكم".

الأمر الرابع والأخير من أسباب الرضا عن النفس: استصغار المعصية، أن نفعل المعصية ونراها صغيرة، ونفعل الطاعة ونراها بأنَّها عظيمة، ما العلاج لهذا الأمر؟

العلاج لهذا الأمر: هو استعظام المعصية وتعظيم الجناية، وأنَّ هذه المعصية هي جريمة كبيرة، وإسراف على النفس، وخطأ، خطأ في حقِّ مَنْ؟ إنَّها خطأ في حقِّ الله تبارك وتعالى، فلا بدَّ من تعظيم الله تبارك وتعالى، وكما قيل: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

روى أبو نعيم الأصبهاني في (حلية الأولياء) عن ابن السمَّاك أنه كتب إلى أخٍ له يوصيه، قال: أمَّا بعد؛ أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيُّك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله في بالك على حالك في ليلك ونهارك، وأحبّ الله بقدر قربه منك وقدرته عليك، واعلم أنَّك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرك، وليكثر منه وجلك، واعلم أنَّ الذنب من العاقل أعظم من الذنب من الأحمق، والذنب من العالم أعظم من الذنب من الجاهل، تعظيم الجناية بتعظيم الله تبارك وتعالى.

الأمر الثاني في تعظيم الجناية وتعظيم الجريمة –وهي المعصية–: هو التصديق بالجزاء؛ أنَّ هذه الآثام التي يقترفها إنَّما هي أحطاب أصلى بها في نار جهنم، يعني إذا جاءتني معصية أو رغبة في مخالفة الأمر الشرعي أنظر إلى هذه المعصية أنها أحطاب جهنم وأنَّها عذاب الجحيم، فكلما استزدت من هذه الآثام إنما أستزيد من وقودٍ في نار جهنم –والعياذ بالله–، فالنظر إلى المعصية أنَّها عذاب وعقاب وجحيم ونار وسعير –والعياذ بالله تبارك وتعالى–.

إذن تكلمنا في هذا اليوم عن:

الرضا عن النفس أسبابه وعلاجه.

الرضا عن النفس أسبابه أربعة:

1– المقارنة بمن ظاهره أسوء حالاً.

2– الاغترار بثناء الخلق.

3– استكثار الطاعة.

4– استصغار المعصية.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يوفِّقنا لطاعته، وأن يصرف عنَّا معاصيه، إنَّه على كل شيءٍ قدير، وصلى الله وسلم وبارك على محمدٍ وعلى آله وصحابته والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



www.nokbah.com